الرسالة، أول منشور تعليمي للفقه
بالمدرسة المالكية المغربية المتجددة
القرن 4هـ/10م
دراسة وتحليل

محمد مزيان وشن
جامعة محمد بوضياف، المسيلة-الجزائر

مقدمة:

إن موضوع تربية الأجيال وتعليمهم شكل محور تواصل الحياة وتطورها عند جميع الشعوب والأمم عبر العصور، وأولاه العلماء والباحثون أهمية بالغة، لكون ذلك يحضر المجتمعات لما هو أفضل وأرقى، ولا يزال الاهتمام مستمرا بعمق في الدراسات التربوية والمناهج التعليمية، والبحث في أغوار علم النفس الطفل يتصدر طليعة البحوث العلمية، قصد إدراك كنهه والإحاطة بقدراته العقلية واستعداداته النفسية، لتهيئة آليات وطرائق تعليمه و توجيهه، ووضع البدايات الصحيحة لحياته، ليكون صالحا لنفسه ولوطنه،وهو ما يشير اليه جان جاك روسو(1712 -1778م)في سياق حديثه عن التربية بقوله:(إذا أردت أن تربي الطفل، فعليك أن تعرف الطفولة أولا)[1].

---

[1] -يكنى بأبي محمد، أصله من قبيلة نفزة بإقليم لجريد التونسي زناتي القبيلة، ولد بالقيروان، حفظ القرآن الكريم صغيرا، وتلقى علوم اللغة العربية وآدابها، وأظهر ميلا للدراسات الفقهية على المذهب المالكي واليه عادت إمامة المذهب المالكي في زمانه، وللقب بمالك الصغير أو مالك المغرب، وقد ترجم له الكثير من اصحاب التراجم والوفيات والمناقب، نذكر منهم: القاضي عياض أبو الفضل بن موسى اليحصبي : ترتيب المدارك وتقريب المسالك في

وفعل التربية والتعليم عند المسلمين هو واجب ديني ودنيوي، لذلك نجدهم قد نهضوا للاهتمام به منذ وقت مبكر وأولوه رعاية كبيرة، فاقتحموه بالدراسة والبحث والتصنيف، وحظي الطفل عندهم بعناية فائقة وكان محور تفكيرهم في نشأته على قيم الدين؛ لكونه في نظرهم يمثل مشروع مجتمع مسلم قارئ متعلم، وعليه ركزوا اهتمامهم به وتحضيره لزمان غير زمانهم، فنجدهم قد أكدوا على الفروق الفردية بين مستويات الاستيعاب عند الأطفال، وبدراسة الدوافع النفسية لديهم، والطرائق التربوية المجدية، واختيار المناهج المفيدة، ودعوة القائمين على التعليم بمراعاة الشعور المرهف للأطفال، وغير ذلك مما يؤهلهم ويكون الملكات العقلية السليمة لهم [1].

معرفة أعلام مذهب مالك، تحقيق أحمد أحمد بكير محمود (بيروت : دار مكتبة الحياة، دون تاريخ) 02/ 500، الدباغ أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الأنصاري : معالم الإيمان فى معرفة أهل القيروان، تحقيق محمد الأصناعي وأبو النور محمد ماضور، (تونس : المطبعة العتيقة، 1972م) 109/03، ابن قنفذ العباس أحمد : الوفيات، تحقيق عادل نويهض، (بيروت : مؤسسة نويهض للثقافة 1982م) 229، Hady Roger idris : La berbèrine Orientale sous Les Zirides , .Libraire d' amèrique et d'orient ,(paris 1962) 02 /0350. Encyclopedie de L' islam , nouvelle èdition Leyde , E. j .(BRILL ,1975) 03 / 717 .

[1] -منها : كتاب أحكام المعلمين والمتعلمين، وقد ورد ذكره عند ابن خلدون ن ويشير فيه إلى قول ابن أبي زيد برفض الضرب البرح للتلاميذ(لاينبغى لمؤدب الصبيان ان يزيد فى ضربهم إذا احتاجوا اليه،على ثلاثة أسواط خفيفة شيئا)العبر وديوان المبتدإ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر(11)جزءا(بيروت: دارالكتاب اللبنانى 1983م)11/ 231 رسالة إلى أهل سجلماسة، يبن لهم فيها الطريقة التعليمية التعلمية لتلاوة القرآن الكريم، أوردها عياض : المدارك، 02/ 494 كما جاءت عند الدباغ : معالم، 03/ 111 . رسالة مبسطة لذوى التعليم الأولى، يشرح لهم فيها أوقات الصلاة وما ينبغى الأخذ به وفق السنة النبوية الشريفة، عياض :المدارك، 02/ 494، الدباغ : معالم، 03/ 111 . رسالة فى طلب العلم وذلك لا يتأتى إلا بالتعليم والتعلم، وبالتالى الكتاب توجيها تربويا حول كيفية تناول العلم،عياض:المدارك،02/494،الدباغ : معالم 111/03، وكتاب فيما تؤخذ عنه قراءة

و علماء بلاد المغرب الإسلامي، لم تكن جهودهم أقل من غيرهم، من علماء الإسلام في الأقطار الأخرى، بل نجدهم سباقين إلى مثل هذه الدراسات، حيث كان نشاط التعليم عندهم يحتل صدارة اهتمامهم، لما فيه ثواب الدنيا والآخرة، وسخروا كثيرا من جهودهم في سبيل التربية والتعليم حيث تشير كتب مصادر التراجم إلى أن جل علماء بلاد المغرب مارسوا التدريس؛ وهم أئمة ومدرسون كبار تشد إليهم الرحال، وفى مقدمتهم الإمام عبد الله بن أبى زيد القيرواني (310-386هـ/922-996م)[1]إذ تشير هذه المصنفات إلى أنه اقتحم ميدان التربية مبكرا بعدة كتب ربما وضعها خصيصا بغرض تطوير مهنة التعليم، والمنهج التربوي للمدرسة القيروانية، ومن أشهرها كتاب الرسالة الذي نتناوله بالدراسة والتحليل لنستشف منه الجانب التربوي التعليمي والفقهي[2].

وقد اقترن هذا الكتاب به، وأصبح ذا طابع مميز عن غيره من مصنفات علماء المذهب المالكى، وعرف صاحبه بأنه إمام فقيه ومربى ومدرس ممتاز،وقد يقف الباحث متسائلا أمام هذه الشخصية التي قطعت زمنا قياسيا في التحصيل العلمي ليصبح مؤهلا لأداء مهمة التربية والتدريس في مرحلة مبكرة من عمره، لم يتجاوز السن السابعة عشر[3]حيث تمكن من إنجاز هذا العمل

القرآن، ربما يكون شرحا لمنهجية تعليمية، لكون التعليم القرآنى سمة ذلك العصر، وكان من بين أولويات تحفيظه للأطفال، عياض : المدارك، 02 / 494، الدباغ : معالم، 03/ 111 .

[1]- عياض :المدارك ،02 /493؛ ابن عماد الحنبلى :شذرات، 03 /131، الزركلى خير الدين: سير أعلام النبلاء، تحقيق محمد أسعد طلس (القاهرة : دار المعارف المصرية، 1962م) 03 / 349 .

[2] -الهادى الدرقاش : أبو محمد عبد الله بن أبى زيد القيروانى، حياته وآثاره (بيروت : دار قتيبة للطباعة والنشر،1998م)336 .

[3] -الدباغ :معالم، 110/03 ، ابن فرحون أبو القاسم اليعمرى إبراهيم بن على المالكى : الديباج المذهب فى أعيان المذهب (المغرب: مطبعة الجزيرة الفاسية، د، ت) 140 .

لمي الذي شغل به عالم العقول الكبيرة ،وبهر به علماء الإسلام ردحا طويلا من الزمن وما يزال يحظى بالقبول الحسن لدى الفقهاء وجمهور الأئمة والمدرسين،والطلبة المتعلمين حتى عصرنا هذا، وعليه نطرح الإشكال التالي :

- ما هو المضمون التربوي في الرسالة؟ لماذا نالت مثل هذه الشهرة الكبيرة على مختلف الأصعدة ؟ هل أن ابن أبي زيد وضع هذا المصنف المختصر وهو في سن السابعة عشر ؟من هو الشخص الذى طلب منه ذلك؟ ما هي مكانة الرسالة ضمن المصنفات التربوية الفقهية الأخرى؟ وماذا أضافت الرسالة إلى الميدان العلمي والتربوي؟ وكيف تناولها الفقهاء والمدرسون ؟ هذه بعض التساؤلات حول الرسالة وسنحاول الإجابة عنها ضمن هذه الدراسة.

1). ابن أبي زيد العالم المدرس :

إن المصادر التي بين أيدينا الآن، والبحوث العلمية الحديثة، التي تناولت حياة الفقيه ابن أبي زيد وأعماله[1] تشير إلى أنه أكبر علماء عصره تأليفا وتدريسا، وطلبته أكثر مما يعدون من مختلف أقطار بلاد المغرب الإسلامي[2]وأن مؤلفاته تزيد عما هو معروف في الساحة العلمية الآن، وقد لخص عياض قيمة آثاره العلمية بقوله:(..وملأت البلاد تواليفه، وعرف قدره الأكابر)[3].

ونتبين من هذا أن إنتاجه الفكري كان غزيرا في مختلف ميادين العلم، لكن السؤال الذي يطرح هو ما مصير هذا الإنتاج؟ الذي يعد قليلا بالمقارنة مع ما تذكره المصادر.

1- المدارك، 02/ 494 .

2- الدرقاش : المرجع السابق، 335.

3- ابن أبي زيد :متن الرسالة، (الجزائر:مكتبة رحاب للنشر والتوزيع، 1987م) 83.

ربما يعود ذلك إلى الأحداث التي عرفها المغرب الإسلامي،كالحروب التي شهدتها القيروان إثر غزوة عرب بني هلال، التيأدت إلى ضياع الكثير من التراث الفكري، بالإضافة إلى ما قام به الاستعمار الحديث من إتلاف ونقل للمخطوطات،وكذلك عامل الانحطاط والتدهور الحضاري الذي أدى إلى عدم إعطاء قيمة للتراث الفكري، فضاع بذلك جزء كبير منه [1]ولم يبق إلا النزر القليل ومنه كتاب الرسالة :

2)الرسالة مختصر فقهي تربوي:

كتاب الرسالة يضم معظم أبواب الفقه المالكي المتصلة بالعبادة والمعاملات، ومقدمة عقدية تتناول مسألة التوحيد، وجملة من واجب أمور الديانة، مما تنطق به الألسن وتعتقده القلوب وتعمله الجوارح،ومما يتصل بالواجب من ذلك، من فرائض وسنن مؤكدها ونوافلها ورغائبها[2]وشيء من الآداب مثل ما جاء في آخر الرسالة، كآداب الطعام والشراب، ولعب النرد، وسباق الخيل كما اشتملت على جملة من أصول التصوف، كالرقية والطيرة والرؤيا وغير ذلك[3].

كل هذا المضمون تناوله بأسلوب بسيط سهل، وفق ما يناسب القدرات العقلية للمبتدئين من صبيان أبناء المسلمين، قصد تربيتهم وتعليمهم قيم الإسلام على أساس الفقه المالكي، وقد فصلت هذه الموضوعات في . 45 . بابا، وشملت رغم صغر حجمها 4000 مسألة فقهية، و400 حديث نبوي

---

[1] -نفسه، 167.

[2] محمد أبو الأجفان : إبن أبي زيد القيرواني، (تونس: مجلة الهداية التونسية، س1، ع2، 1331هـ م1974م)6

[3] -عياض: المدارك 494/02، الدباغ :معالم، 112/03 ، يذكر بروكلمان نسخة منها مخطوطة في الأماكن التالية:

شريف[1]،عالجها المؤلف كلها بمنهجية تربوية مركزة، وبقدرة لغوية راقية تكشف عن تمكن علمي وذهني قوي، تمتع بسلامتهما الفقيه بن أبي زيد.

والرسالة هي باكورة السعد له، وفاتحة عهده لاقتحام مجال التأليف[2]

وقد اتفقت جميع المصادر التي تمكنت من الإطلاع عليها، أن كتاب الرسالة في الفقه المالكي لابن أبي زيد لالغيره، وقد ألفه لغرض تعليم الفقه لأبناء المسلمين[3]ويمكن أن نتبين من محتوى هذا الكتاب أن المؤلف أراد الجمع بين غايتين هما :

أ ـ الغاية الفقهية الصرفة، وفق أحكام المذهب المالكي، ويبدو عليه حماس المؤمن والعالم المجدد في توجيه الناس نحو منهج إسلامي يعتمد مدرسة النقل والأثر .

ب . الغاية التربوية الهادفة، بسلوك منهج إصلاحي ومعالجة الواقع المعاصر له، ووسيلته في ذلك بيان الأحكام، والتصريح بالآثار التي تحكمها، وفق مستوى القدرات العقلية للمتعلمين المبتدئين .

3) . **فكرة تأليف الرسالة.**

اختلفت المصادر في تحديد الشخصية العلمية التي طلبت من ابن أبي زيد أن يضع لها مصنفا ميسرا في الفقه المالكي لتعليم الصبيان، والذي سمي

---

(1) -برلين 4446، جوتا 1045، باريس أول1057، 1061، 4809، الجزائر أول769، رقم 5، 1037،1046، كمبرج أول 77، القاهرة أول 5، 165،أسكريال ثاني 248،رقم6،1528، نابولي 25 ،(cat299) فاتيكان ثالث416، رقم 1، 1343، المتحف البريطاني براون 6585، ثالث 27، مانشيستر 193، مكتبة جامع الزيتونة تونس،4، 3000، رقم2500، تاريخ الأدب العربي، ترجمة عبد الحليم النجار (القاهرة : دار المعارف المصرية، 1974م) 286/03 .

(2) -الدباغ: معالم، 02/ 377.

(3) -نفسه: 111/03.

فيما بعد ـ الرسالة ـ هل هو شيخها إسحاق السبائي (ت356هـ/968م)؟[1] أم هو المؤدب محرز بن خلف (ت 413هـ/1018م)؟[2] وهل الرسالة التي ألفها ابن أبي زيد عام 327هـ/939م، هي نفسها الرسالة التي بين أيدينا اليوم؟ .

إن أول مصدر طرح هذا الإشكال هو معالم الإيمان، حيث أورد:(...وأول تواليفه الرسالة كان الشيخ أبو إسحاق السبائي سأله وهو في سن الحداثة أن يؤلف له كتابا مختصرا في اعتقاد أهل السنة مع فقه وآداب، ليتعلم ذلك أولاد المسلمين، فألف الرسالة)[3]، ثم أردف في الفقرة الموالية نقلا عن أبي عبد الله محمد بن سلامة التونسي، وأبي علي نصر الدين البيجائي قائلا:(إنما سأله تأليفها الشيخ المؤدب محرز بن خلف التونسي)[4] ويقول: (هذا هو الصحيح عندي)[5].

يتبين من خلال هذه الإفادات، أن أبا إسحاق كان أستاذا لأبي عبد الله بن أبي زيد، وكانت العلاقة بينهما حميمية طيبة، نستخلصها من الخدمات التي كان ابن أبي زيد يقدمها لشيخه عند الحاجة[6] ومن خلال المكانة المتميزة التي يوليها الشيخ لتلميذه. حيث كان يسمح له بالجلوس في حلقة العلماء[7] تقدير الرجاحة عقله وسعة علمه، فلا غرابة أن يطلب أبو إسحاق السبائي من تلميذه ابن أبي زيد وضع مصنف صغير مختصر لتعليم الأطفال قواعد وأصول الدين على أساس المذهب المالكي، وقد يكون أولاه ثقته في ذلك رغم حداثة سنه[8].

---

(1) -نفسه ،111/03.

(2) -عياض :المدارك، 494/02 .

(3) -متن الرسالة، 06 .

(4) -نفسه، 07 .

(5) -نفسه، 08 .

(6) -نفسه، 08 .

(7) -عياض : المدارك، 02/ 494 .

(8) -الدرقاش : ابن أبي زيد، 352 .

على أساس المذهب المالكي، وقد يكون أولاه ثقته في ذلك رغم حداثة سنه[1].

إلا أن ما نتبينه من بعض المصادر، سواء تلك التي ترجمت للسبائي[2] أو التي ترجمت لابن أبي زيد[3]لا تشير إلى هذا الطلب تماما، ثم كيف يمكن أن يوجه ابن أبي زيد رسالة فقهية في التربية والتعليم إلى شيخه، و يخاطبه بألفاظ العارف الكبير إلى الصغير مثل ذلك(اعلم)[4](لما رغبت فيه من تعليم ذلك للولدان)[5] (وقد مثلت لك من ذلك)[6](وسأفصل لك ما شرحت لك ذكره)[7].

وعليه أعتقد أن هذه العبارات لا تكون موجهة من تلميذ لشيخه الذي علمه، ويعترف بذلك ابن أبي زيد بنفسه حيث يقول: (إن ما نحن فيه إلا من بركته ودعوته)[8]، وإذا صح تأليف الرسالة سنة 327هـ/939م فإن عمر السبائي يكون 57 سنة فقط، ففي هذا العمر هو غير عاجز على وضع مختصر فقهي، مثل الرسالة لتعليم الأولاد .

---

(1) -الدرقاش : ابن أبي زيد، 352 .

(2)-نفسه، 353 .

(3)- hady .r .i . op .cit.2/710 .

(4) -ابن عذارى أبو عبد الله محمد المراكشي :البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ج، س، كولان، و أ، ليفي بروفنسال (بيروت : دار الثقافة، 1983م)، 01 / 264 .

(5)-ابن أبي زيد :متن الرسالة، 06 .

(6)الدرقاش : ابن أبي زيد، 352 .

(7) أنظر ابن أبي زيد : متن الرسالة

(8)Hady.r .I : op cit , 02/ 714 .

ثم أن السباتي لم يمارس مهنة التعليم للصبيان،ولا تشير إلى ذلك المصادر التي هي في متناولنا الآن[1]ومن جهة أخرى إذا كان تأليف الرسالة وعمر إبن أبي زيد 17 سنة، فما علاقة الشاب إبن أبي زيد بالأبهري البغدادي المولود (290هـ/902م)(ت375هـ/980م)[2]وهو شاب في سنه كذلك، وما علاقة أبن أبي زيد الشاب بأبي بكر بن زرب المولود (317هـ/929م) (ت381هـ/986)[3]وهو في سنه تقريبا، ولماذا أرسل لهما نسخ من كتاب الرسالة ولم يصلا بعد إلى درجة العلماء في ذلك الوقت، وهم جميعا شباب في سن متقارب حسب تاريخ ميلادهم، وعليه يكون الريب في كون الرسالة قد ألفت في هذا السن وفي هذه السنة بالذات، وإنما قد تكون صنفت فيما بعد.

وإذا كان محرز بن خلف هو الذي طلب منه أن يضع له هذا المصنف، فإنه من غير المعقول أن يكون ذلك عام 327هـ

/939م، لأن ابن خلف كان في عالم الغيب لم يولد بعد، وتشير المصادر أن مولده كان سنة 340هـ/945م[4] ويكون الفرق بين تأليف الرسالة ومولد إبن خلف 13سنة.

وإذا تناولنا لغة الرسالة وأسلوبها وثراء معلوماتها، (4000 مسألة فقهية و400 حديث نبوي شريف)[5]، فهي تنم على أن مؤلفها له باع في العلم وصاحب وصاحب مهنة وخبرة و تجربة واسعة، وأعتقد أن هذه المواصفات لا تكون

---

[1]- ابن أبي زيد: الجامع، 61 .

[2]- الدباغ: معالم، 111/03.

[3]- ابن أبي زيد : متن الرسالة، 06،07، أنظر صالح عبد السميع : الثمر الداني، 07 .

[4]- محمد الباهلي النيال: المرجع السابق، 57.

[5]- ابن ابي زيد القيرواني: كتاب الجامع، تحقيق ابو الاجفان وعثمان بطيخ، ط 2 (تونس: مؤسسة الرسالة، المكتبة العتيقة، 1983 م) 61.

لابن السابع عشر من العمر، مهما كان تفتقه الذهني وعمق إدراكه لأمور الدين والدنيا، وعليه يمكن أن نستنتج ما يلي:

أ الرسالة جاءت آية من الدقة في التعبير، ومنهجا تربويا سليما، ينم عن عقل رزين لصاحبها وثقة كبيرة فيما يقول، وهو ما يجعلنا نرجح أن الرسالة بهذا الشكل لم تكن موجهة للسبائي عام 327 هـ/939م، بل إلى المؤدب محرز بن خلف في وقت آخر، ربما بعد خروج العبيديين الشيعة من بلاد المغرب عام 362 هـ/972م، ويكون عمر المؤدب محرز بن خلف أكثر من عشرين سنة، وهو السن الذي يمكنه من أن يكون مدرسا للأطفال[1] وسن ابن أبي زيد 52 سنة.

ب- يشير هادى روجي، أن الرسالة جزئين عقائدي . وعملي والجزء العقائدي هو ما يعرف بكتاب . رسالة العقيدة . أما الجزء العملي فهو . متن الرسالة المتداول اليوم[2].

ج- يمكن أن تكون الرسالة التي كتبها ابن أبي زيد عام 327هـ/939م، لشيخه السبائي هي غير الرسالة التي قدمها إلي المؤدب محرز بن خلف، وربما تكون غير شاملة لجميع الأحكام التي يتضمنه متن الرسالة اليوم، وقد تكون هي رسالة العقيدة التي شرحها الإمام أحمد زروق[1].

وفي اعتقادي أن تأليفها كان بأمر مدبر من فقهاء المالكية في الوقت الذي كان فيه الصراع المذهبي على أشده[2] وحملوا ابن أبي زيد الاضطلاع بتأليف مصنف في الفقه يكون بسيطا مختصرا لتعليم الصبيان، إدراكا منهم أن تعليم الأجيال استثمار في مستقبل المذهب،و بناء للمجتمع المغاربي على أساس الفقه المالكي ،وهو ما كان عليه الأمر في ترسيخه وتمكينه بأرض

---

[1]- الدرقاش: المرجع السابق، 352.

[2] 2/710 -hady .r .i . op .cit

المغرب الإسلامي فيما بعد وقد أشار إلى ذلك ابن أبي زيد في مقدمة رسالته بقوله:(..واعلم أن خير القلوب أوعاها للخير، وأرجى القلوب للخير مالم يسبق الشر إليه، وأن تعليم الشيء في الصغر كالنقش على الحجر)[3].

ويمكن أن تكون الرسالة قد ألفت في ظل الدعاية المضادة للشيعة،في زمن السبق للحصول على قواعد النهوض بالمجتمع تربويا ومذهبيا، وهو ما يفسر أن تأليفها كان في زمن وجود الفاطميين بإفريقية وليس بعد خروجهم كما يذكر بعض الباحثين[4].

وربما يكون الجزء العملي من الرسالة، هو الذي قام ابن أبي زيد بتأليفه بعد انتقال الفاطميين إلى مصر عام 362 هـ/972م، في حين ألف الجزء العقدي قبل ذلك، ولا نعدم أن تكون قد وضعت خصيصا لتعليم أبناء المسلمين مبادئ الفقه المالكي بعد التشويه الذي لحقه من طرف الشيعة الفاطميين.

4)- شهرة الرسالة وعوامل انتشارها:

يعتبر كتاب الرسالة من أهم ما ألف في الفقه المالكي، من حيث الأهمية التعليمية والتداول بين طلبة العلم، وقد كان له من القبول والانتشار والعناية قراءة وحفظا وشرحا، ما لم يحظ به أي مصنف فقهي تعليمي غيره ببلاد المغرب الإسلامي[5]لقد عظم شأن الرسالة كمرجع تعليمي،حيث يصف الشيخ القلشاني(ت863هـ/1458م) إقبال الناس عليها واهتمامهم بها بقوله:(اشتهرت

---

[1]-الدرقاش: المرجع السابق، 353.

[2]-ابن عذاري: البيان، 264/1.

[3]- ابن ابي زيد: متن الرسالة، 22.

[4]-الدرقاش: المرجع السابق: 352.

[5]- ابراهيم حركات: المرجع السابق، 261/2.

اشتهار النهار وشاعت في جميع الأقطار وتلقاها الناس بالقبول، و ظهرت بركتها ويمنها على من تهمم بها من الصغار والكبار[1].

أ ـ إن ما تضمنته الرسالة من عقيدة وفقه وأدب، وتوجيه تربوي بشكل مختصر مبسط، سهل على الناشئة تعلمها مجتمعة في مصنف واحد، ومن ثم ذاعت شهرتها وانتشرت سمعتها .

ب ـ جمعت مسائلها الأحكام التوفيقية بين الأثر والنظر[2] وهو ما جعلها محل اهتمام كبير من طرف العلماء والطلبة بمختلف مذاهبهم[3].

ج ـ مسائلها خالية من التعقيد[4]حيث صاغها ابن أبيزيد ميسرة للفهم لا سيما وأنها موجهة للمبتدئين، وهو الأمر الذى كان له الأثر فى نفوس الطلبة للإقبال عليها من جميع الأعمار.

د- وضوح أهداف الرسالة التربوية، وهو عامل نجاحها واشتهارها بين المدرسين والدارسين.

هـ-خفة مؤونتها شكلا ومضمونا، مع صغر حجمها، والناس بطبعهم يميلون إلى ذلك حملا وقراءة وحفظا، وقد جرت العادة بين الناس بالمبادرة إلى ما يقبل عليه الجمهور الغفير، من باب الفضول والتنافس على ما هو جديد للإطلاع عليه، لكون الرسالة اعتبرت حدثا تربويا وعلميا رغب الناس في معرفته والاطلاع عليه[5] هذا الكتاب الذي حظي بالقبول الحسن لدى المعلمين

---

[1]- عمر الجيدي: الرسالة، المرجع السابق،70.

[2] انظر متن الرسالة، 18-19-20-21 وما يليها.

[3]-714.2/hady .rai . op .cit.

[4] ابن أبي زيد: الجامع،61.

[5] الدباغ: معالم،111/3.

والمتعلمين، ومن طرف كبار علماء الفقه المالكي، فضلا عما تميز به من منهجية واضحة في اختصار جانب العبادات والمعاملات في أحكام الفقه، وبلغة سليمة وأسلوب جميل، مع ثروة علمية فقهية تناسب القدرات العقلية للمبتدئين في الدراسة فبذلك يتضح أن الكتاب لمدرس ماهر يتمتع بكفاءة عالية، يحسن أداء المهنة بدليل عرضه للمادة الفقهية بمنهجية تربوية هادفة، وهو يعلم من يخاطب، ويعد هذا من طرائق التدريس الناجعة، وهو ما يتضح من خلال قوله في ديباجة كتابه (أكتب لك جملة مختصرة من واجب أمور الديانة، بما تنطق به الألسن وتعتقده القلوب، وتعمله الجوارح، مع سهل سبيل ما أشكل من ذلك، لما رغبت فيه من تعليم ذلك للولدان)[1].

5) . **اهتمام الفقهاء المدرسين بمتنالرسالة :**

نظرا للقواعد التربوية التي بنيت عليها الرسالة وأسلوبها في تعليمية الفقه، حرص شيوخ المالكية عبر العصور على أخذها كأهم مرجع معتمد في تدريس الفقه المالكي للمبتدئين ببلاد المغرب الإسلامي؛ بينما في المراحل الثانوية خصت الرسالة بتدريس ما جاء حولها من الشرحات في حلقات دروسهم وإبراز جوانبها الفقهية ودلائلها التربوية، بحيث أضفت هذه الشروح على متن الرسالة طرائق وتحصيلات حول بلوغ المرام من تعليم الفقه المالكي منذ وقت مبكر لا يزيد عن عشر سنوات من تأليفها[2]. لقد كثر عدد الذين تناولوا الرسالة بالشرح عبر الأزمنة، حيث أحصى بروكلمان ثمانية وعشرون شرحا[3]. أما بابكر الحسن فجاء عنه أن أصحاب دائرة المعارف الإسلامية ذكروا ثلاثين شرحا[4]،

---

[1]- ابن ابي زيد: متن الرسالة، 7، 8.

[2]- بابكر الحسن: المرجع السابق، 110.

[3]- تاريخ الأدب العربي، 286/3.

[4]-بابكر الحسن: نفسه، 111.

بينما خالد المذكور في رسالة الدكتوراه عن حياة ابن أبي زيد أحصى ستة وأربعون شرحا[1]، أما الأستاذ الهادي الدرقاش في رسالة الدكتوراه عن حياة ابن أبي زيد قد أورد خمسون شرحا وتعليقا ونظما وترجمة[2]، والدكتور عمر الجيدى أورد ستة وخمسون شرحا في مقاله بمجلة دعوة الحق المغربية[3]، وجاء عن الشيخ حسن حسني عبد الوهاب أن شروح الرسالة زاد عن مائة شرح[4].

---

[1]- نفسه،114.

[2]-أبو محمد عبد الله بن أبي زيد، حياته وآثاره، 360.

[3]الجيدي عمر: الرسالة، دعوة الحق، ع 73/1983/228.

[4]-ورقات، 54/3.

وخلال تحضيري لهذا العمل تمكنت من إحصاء مائة وثلاثون شرحا وتقييدا عليها ومن الإطالة أن آتى إلى عرض كل تلك الشروح، وسرد قائمة الشراح في هذا الباب، أما السيمات المميزة في تناولهم لمتن الرسالة، والجوانب التي ركز عليها طائفة الشراح في مباحث موضوعاتها، وفي مناهجهم وطرائقهم التي اتبعوها في شرحها فهي مختلفة، لكنهم جميعا أشادوا بأسلوبها التربوي في خدمة التعليم الفقهي لصغار أبناء المسلمين، نختصرها في النقاط التالية :

1) . طائفة التقييدات: وهي عبارة عما يتلقفه التلاميذ من شيوخهم، وهم يعرضون شرح متن الرسالة وتوضيح مسائلها وبسط قضاياها، بغرض إفادة الطلبة بها ،مثل: تقييد القاضي أبو الحسن على بن محمد الزويلي(ت 719هـ/1319م) [2]. وأبو عبد الرحمان بن عفان الجزولي (ت741هـ/1337م)[2]. وشرح يوسف بن عمر الأنفاسي (ت761 هـ/1359 م)[3].

2) . طائفة من الشراح ،اقتصرت على شرح جانب واحد من الرسالة، ولم تتعقب كل أبوابها وموضوعاتها، مثلما هوالأمرعند أبي عبد الله محمد بن احمد الأنصاري الإشبيلي[4] الذي اقتصر في شرحه للرسالة على جانب العقيدة منها، ومثله العلامة أبو عبد الله محمد جسوس(ت1182هـ/1768م)، الذي أشار بنفسه إلى أن له شرح تناول فيه جانب العقيدة فقط من الرسالة[5]وأبو بكر عبد الله بن طلحة البابري الإشبيلي (ت518هـ/1124م)، الذي يشير إليه صاحب الشجرة بأن له شرح لصدر الرسالة فقط[6]ومن خلال ما جاء في المصادر التي أوردت أسمائهم

---

[2]-ورقات، 54/3.

3- عمر الجيدي: دعوة الحق، ع 228، 1983م/73.

[4]- أبو الأجفان: كتاب الجامع، 51.

[5]- مخلوف: شجرة النور، 124، 125.

يتضح أنهم جميعا فقهاء مدرسين، فهم يقدمون هذه الشروح التوضيحية لطلبتهم.

3) . طائفة اعتمدت شرحا عاما لمعاني المسائل والأحكام الواردة في متن الرسالة، وكان تلخيص ولم يكن شرحا وافيا لها، مثل ماقام به الفقيه الإمام، أبو جعفر أحمد بن الحسن الكلاعي بن الزيات (ت 728هـ/1329م)[1].

4) . بعضهم كان يركز اهتمامه على المشهور من الرسالة فقط، مثلما هو الأمر في مصنف الإمام داود بن عمر بن إبراهيم الشاذلي (ت732هـ/1328م)، حيث اقتصر على المشهور، مع إيضاحه وبيانه، وقد سمي شرحه . إيضاح المسالك على المشهور من مذهب مالك[2] .

5) . طائفة من الشراح كانت تجنح إلى التعليل لمسائل الرسالة، أو ينصب اهتمامهم على جمع النظائر منها وتبويبها، كما فعل ابن غازي العثماني (ت919هـ/1516م)[3]، حيث عمد إلى إخراج مسائل الظن، ومسائل الإبطال والإتقان، وذكر شروط الصيد وغيرها، وهذا النمط من التأليف يعود إلى قواعد تعليم فقه الأصول[4].

أما شروح الرسالة المطبوعة سأتناول ذكر أهمها فيما يأتي:

أ . شرح ابن ناجي قاسم بن عيسى القيرواني (ت837 هـ/1432م)[1] ويعد من أهم الشروح بشهادة الكثير من العلماء، نظرا لتعرضه للكثير من الفرعيات، وبيان أقوال الفقهاء فيها، كما اعتمد عليه من جاء بعده من الشراح[2].

1- نفسه، 213.

2- بابكر الحسن: المرجع السابق، 113.

3- أبو الأجفان: كتاب الجامع، 62.

4- نفسه، 63.

1- بروكلمان: تاريخ الأدب العربي،286/3.

ب . شرح زروق أبو العباس أحمد البرنسي (ت 899 هـ/1494م)، يعتبر هذا الشرح من الشروح المعتمدة في المذهب المالكي لاختصاره، ومكانة صاحبه، وغزارة علمه وإخلاص نيته[2].

ج) . شرح الشيخ صالح عبد السميع الآبي الأزهري بعنوان : الثمر الداني شرح رسالة ابن أبي زيد القيراواني، وهو من أجود الشروح، حيث تناول بالشرح كل المسائل الفقهية الواردة في الرسالة مع تناول ألفاظها بالتفسير اللغوي والمفهوم الاصطلاحي[3].

د) . شرح أبو الحسن نور الدين علي بخلف بن جبريل المنوفي الشاذلي (ت936هـ/1528م) يسمى شرحه – كفاية الطالب الرباني، متداول عم نفعه الجميع، وهو المعروف عند الطلبة بشرح أبي الحسن،وعليه كان الاعتماد في تدريس الرسالة بالمغرب[5]، وقد وضع له الشيخ علي بن احمد الصعيدي العدوي شرحا على هامشه يسمى حاشية العدوي وهو في جزئين كبيرين[6].

هـ)– شرح أبو الفضل أحمد بن محمد بن الصديق بعنوان: مسالك الدلالة في شرح متن الرسالة ويشير المؤلف في مقدمة كتابه : أنه كان قد وضع على الرسالة كتابا أخرج فيه دلائل ما اشتملت عليه من الفروع الفقهية، وسماه: تخريج الدلائل لما في الرسالة من الفروع والمسائل، ثم اختصره في كتاب آخر بالعنوان المذكور أعلاه، الذي لم يتعرض فيه لجميع ما في متن الرسالة بل

---

[2]- طبعته الأولى (بمصر عم 1332هـ/1912م)، وأعيد طبعه (ببيروت: دار الفكر، 1402 هـ/1982م) أنظر بابكر الحسن: المرجع السابق، 113.

[3]- بابكر الحسن: المرجع السابق، 113.

[4]- (الجزائر: دار رحاب للنشر والتوزيع، 1987م).

[5]- بروكلمان: نفسه، 288/3.

[6]- (بيروت، دار المعرفة، دون تاريخ).

حذف منه ما هو ظاهر لا يحتاج إلى دليل، ويبدأ كتاب مسالك الدلالة بالكلام عن أحاديث خطبة الرسالة وغرضها التربوي التعليمي، وما جاء عن ذلك من مؤلفها، ثم ينتقل إلى القسم الخاص بالفقه، دون أن يتعرض لعقيدة الرسالة[1].

هذه الشروح برمتها قد أدت دورها في خدمة الحقيقة العلمية والفقهية على صعيد التعليم بالمغرب الإسلامي، و احتفظت لنا بأقوال وآراء نخبة من علماء وفقهاء المالكية،وإذا كان عدد شراح الرسالة كبيرا، فإن الذين نظموا متنها قصائد شعرية لايقلون عددا، ولا ريب أن غرضهم يكمن فى تسهيل تعلمها شعرا، وهو ما يبدو عند الكثير من الفقهاء والشيوخ والطلبة الذين تناولوها بالحفظ عن ظهر قلب، في عهد كان فيه حفظ المتون تقليدا علميا يوجه إليه الطلبة مثلما يوجهون إلي حفظ القرآن الكريم[2].

ومن الشيوخ الناظمين للرسالة وكذا الحافظين لها، نذكر الأسماء التالية:

1- أبو محمد عبد الوهاب بن نصر البغدادي،(ت422هـ/1027م) ، وقد مدحها بقصيدة مطولة ذكر فيها مناقبها وأحكامها الفقهية ومنها الأبيات التالية:

رسالة علم صاغها العلم النهد× قد اجتمعت فيها الفرائظ و الزهد

أصول أضائتبالهدي فكأنما× بدي لعيون الناظرين بها الرشد[1]

عبد الرحمان أحمد بن الحاج الغلاويالشنقيط(ت1209هـ/1793م)[2] دبج الرسالة بقصيدة طويلة، وذكر في مستهلها أن غرضه من ذلك هو تمكين الطلبة من حفظها

---

[1]- الطبعة الأولى منه عام 1374 هـ/1954م، أبو الإجفان: كتاب الجامع، 59.

[2]- حركات ابراهيم: المرجع السابق، 205/2.

1- الدرقاش: ابن ابي زيد ،268.

2 . عمر الجيدي : دعوة الحق، ع 03، س 63/21 .

المطالب(ت953هـ/ 154م) سماه تحرير المقالة في شرح نظائر الرسالة[1] وممن وضع نظما مفيدا على الرسالة، الإمام الفقيه ميمون الفخار[2].

كما تناول الدكتور الهادي الدرقاش هذا الموضوع تحت عنوان: فقه الرسالة متنا ونظما وتعليقا[3]، وجاء عمله مفيدا بمقدمة أبرز فيها الغرض من دراسته للموضوع.

بينما انتشر حفاظ الرسالة في مختلف أقطار البلاد الإسلامية أمثال : أحمد بن عيسى الحافظ بن محمد بن عبد الواحد الونشريسي مفتى تلمسان(ت914هـ/1580م)[4]،أبو القرشي ظهير الدين بن محمد بن محمدالقرشي المكي[5]وعبد الرحمان بن محمد بن براهيم الدكالي المغربي(ت962 هـ/1458م)[6]وسليمان بن شعيب بن خضر البحيري القاهري[7] وعبد الوهاب بن محمد بن محمد إبراهيم المشنزائي (ت996 هـ/1570م)[8]ووغيرهم .

1- الدرقاش: ابن ابي زيد، 367.

2- دعوة الحق، الرسالة، ع 228/1983م/75.

3-بيروت:دار قتيبة للباعة والنشر والتوزيع، 1989م)، تطرق إلى كتاب الرسالة، شهرته، وترجمة مقتضبة للشيخ الإمام . عبد الله بن أبي زيد القيرواني . صاحب المدرسة المالكية، بالمغرب الإسلامي، القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى من ص 09 إلى 15، ثم تناول متن الرسالة نظما وتعليقا من ص 17 إلى 412 .

4- الحميدي: جذوة المقتبس،179/1.

5- القرافي: نيل الابتهاج،110/1.

6- الحميدي: جذوة المقتبس،407/2.

7- التنبوكتي: نيل الابتهاج،200/1.

8- الحميدي: جذوة المقتبس، 455/2 .

وفضلا عن هذا الاهتمام الكبير بالرسالة، فإن الشيوخ في مراكز المذهب المالكي كانوا يجيزون بها رواية وحفظا وحديثا، للذين يضطلعون بمهمة تدريس أبناء المسلمين،فمنهم الفقيه – محمد بن منصور الحضرمي – كان يحدث بالرسالة عن ابن الوليد عن ابن أبي زيد، وأبو القاسم خلف بن إبراهيم (ابن النحاس) (ت511هـ/1118م) أجاز بها عبد الحق بن عطية وقدمه للدروس[1].يقول عياض: عن شيخه، ابن الحصار[2] (ت422 هـ/1013م)(حدثني برسالة إبن أبي زيد بقراءة عليه في مجلس واحد جمعنا بداره، عن عبد الله بن عابد عن مؤلفها"[3].

ويفيدنا الإمام أبو العباس الغبريني (ت 794هـ/1305م)، أن سنده إلى الرسالة كان عن طريق ابن محمد بن محرزعن عبد الله عن بن الصغير عن ابن الحذاء عن أبي قاسم اللبيدي عن ابن أبي زيد القيراوني[4].

ويذكر أن أبا عبد الله محمد بن غازي المكناسي سنده إلى الرسالة ترجمته لشيخه ابن عبد الله بن الحسين بن حمامه فيقول: (لازمت مجلسه وحدثني عن الرسالة عن ابن الحسن الوهراني عن ابن وكيل ميمون عن ابن العباس الزواوي عن أبي محمد بن عتاب عن الشيخ أبي محمد العكي عن ابن أبي زيد القيرواني)[5].

1-أبو الأجفان: كتاب الجامع، 65.

2 هو أبو مطرفة عبد الرحمان بن احمد بن السعيد بن محمد بن بشير القاضي، انظر القاضي عياض: المدارك، 736/2.

3-أبو الأجفان : كتاب الجامع، 65 .

4- عنوان الدراية فمن عرف عن العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق محمد بن شنب، (الجزائر:المطبعة الثعالبية،1910م).

5-أبو الأجفان: كتاب الجامع، 66.

الخلاصة:

نلاحظ من خلال ما تقدم ذلك التواتر بين العلماء في الحديث عن الرسالة، سواء كان منها الجانب الفقهي أو ما تعلق بالناحية التربوية التعليمية، والإجازة بها والحرص على أخذ سندها عن سلسلة الفقهاء والعلماء وطلبة العلم وصولا إلى مؤلفها عبد الله بن أبي زيد القيرواني، وأن وجود نسخ خطية منها بالفاتيكان والجامعات الأوربية الكبرى ومختلف مراكز العلم بالبلاد الإسلامية، ما هو إلا انعكاس لمدى أهمية الرسالة كسند ديني تعليمي، له مكانته بين المصنفات العلمية في التراث الإنساني العالمي[1]ولا تزال الرسالة إلى اليوم تدرج ضمن البرامج المقررة للتعليم الفقهية في مختلف الزوايا ببلادنا الجزائر[2]. وعليها يعتمد الطلبة في دراستهم للفقه المالكي، كما أن اسم ابن أبي زيد القيرواني قد اقترن بالرسالة مباشرة، ولا يكاد يعرف إلا بها عند العامة[3].

---

[1]- يذكرها في متاحف هذه العواصم مصنفة، بترقيم بيلوغرافي، قصد حفظها وصيانتها، تاريخ الأدب العربي،3/ 286 .

[2]- على أمقران: المعهد السحنوني بأربعاء نيثراثن، (قسنطينة: مجلة ـ سيرتا ـ معهد العلوم الاجتماعية، جامعة قسنطينة، س 3،ع 5، رجب 1401 هـ/1987م) 69.

[3]- مقابلات شخصية مع بعض الأئمة والطلبة الذين درسوا بزاوية تامقراء، بولاية بجاية وزاوية سيدى امحمد أوشيخ، ببجاية، وزاوية سي أحمد ببلدية زمورة وزاية القليعة بلدية تسامرت ولاية برج بوعريريج، ومع الإمام الفقيه، عمر أبوحفص، رحمه الله (ت1410هـ /1990م) امام جامع برقي الجزائر العاصمة، أفادني الجميع بأن كتاب الرسالة من بين المصنفات التي تلازم الأئمة والطلبة في دراسة الفقه الإسلامي علي أساس المذهب المالكي.

4 . فاخر عاقل: علم النفس التربوي،11 (بيروت: دار العلم للملايين، 1975م) 13؛ كليفور موجان وجون ديز: الأسس العلمية للاستذكار، ترجمة أحمد محمد العيساوي (الكويت: مؤسسة الكتاب الحديث، 1995م) 204؛ B . ABARCADELRIO : psychopédagogie et dynami et dynamitiq de L'orientation des groupes scolaires ; o.p.u 1986 /73

وما نخلص إليه ،هو أن ما أحدثته الرسالة من حركة فكرية في ميدان التعليم الفقهي وما كان لها من العناية بالشروح والتعليقات حول مكونتها التربوية والفقهية، وما وضع عن تلك الشروح من حواشي وطرر، لكان ذلك وحده يستحق بحثا أكاديميا خاصا،سواء من جانبها الفقهي أو ما تعلق بأسلوبها التربوي التعليمي، ويتضح أن مؤلفها يتميز بمهارة إيصال المادة العلمية لطلبته بدليل منهجية عرضه لمتن الرسالة،وكأنه وضع منذ ذلك الوقت أسس منهج المقاربات البيداغوجية لتعليمية المادة المبنى على الأخذ بالبسيط إلى المركب، وهو ما يدعو إليه اليوم العلم الحديث